دراســـــة بشـــأن

تصحيح صورة الإسلام في الغرب

أ.د. نبيل السمالوطى(*)

تمهيد:

نعانى اليوم كثيراً من صورة الإسلام كما يفهمها رجل الشارع الغربى(1) وكما يفهمها صناع القرار السياسى والاقتصادى والعسكرى هناك؛ لأن هذه الصورة المشوهة هى التى جعلتهم يتهمون الإسلام والمسلمين بالعنف والتطرف والإرهاب وإثارة القلاقل والحروب، ومعاداة الحضارة الغربية رمز التقدم والتنمية، ومعاداة الأخذ بالعلوم والتكنولوجيا الحديثة، ومعاداة المنهجية العلمية فى التفكير. هذه الصورة المشوهة هى التى جعلتهم يحاولون رسم خرائط جديدة للعالم الإسلامى، خرائط جغرافية من خلال التخطيط لتقسيم بعض الدول كالعراق، والسودان..، وخرائط ثقافية وفكرية من خلال التدخل السافر فى البناء التعليمى والتربوى الذى يمس التربية الدينية كما يحدث الآن فى باكستان وغيرها من الدول وخرائط سياسية لإحداث قلاقل هنا وهناك ودعم نظم معينة ومحاولة الإطاحة بنظم أخرى... إلخ **(أفغانستان والعراق)**.

وهذه الصورة المشوهة هى الذريعة التى يتخذها صناع القرار فى الغرب لإبادة وتشريد وقتل المئات من المسلمين فى العديد من دول العالم وأبرزها أفغانستان والشيشان وفلسطين وكشمير والعراق... إلخ. وهذه الصورة المشوهة هى التى جعلت بعض المتطرفين فى الغرب يؤكدون أن العدو البديل عن

(*) مقرر لجنة الندوات والمؤتمرات واللقاءات العلمية برابطة الجامعات الإسلامية، وعميد كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر.

(1) وسنهتم في هذه الدراسة بإبراز مجموعة من الحقائق المهمة هي:

1ـ التنظير الغربي للإسلام الأصولي.

2ـ المنهجية العلمية للرد على المزاعم الغربية.

3ـ أسس للحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

الشيوعية بعد سقوطها هو الإسلام، وإنه يجب إعادة شن حرب صليبية جديدة ضد الإسلام. هذه الصورة المشوهة عن الإسلام هى التى جعلت حقوق المسلمين فى أغلب بقاع العالم تنتهك تحت سمع وبصر العالم وتحت سمع وبصر كل الهيئات الدولية والإقليمية المعنية بحقوق الإنسان. ولعله من المضحك المبكى أن دول الغرب ترسل بعثات للحفاظ على الحياة الفطرية التى يقصد بها الحيوانات المعرضة للانقراض فى أفغانستان فى الوقت الذى يباد ويشرد آلاف الناس هناك تحت سمع وبصر العالم كله، وبتأييد من القوى العالمية العظمى تحقيقًا لمصالح معينة بعيداً عن العدالة والقيم وحقوق الإنسان.

أولا: التنظير الغربي للإسلام الأصولي:

هذه الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين يقف وراءها مراكز تبحث وتخطط ومصالح اقتصادية وسياسية وإستراتيجية، ومن وراء كل هذه المراكز والمصالح القوة الصهيونية والمصالح الرأسمالية الغربية. هذه القوة وتلك المصالح هى التى تمتلك المال والخبرة والتكنولوجيا المتقدمة والقادرة على توظيفها فى تشكيل الرأى العام والاتجاهات والثقافة من خلال الإعلام وآليات البناء الفكرى المؤثر فى الغرب من صحافة وسينما وتليفزيون ومسرح وقنوات فضائية ومراكز للبحث وتزييف للعلوم وإخراج نظريات زائفة بمثابة الحق الذى يراد به باطل خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولعل الأمثلة على هذا كثيرة جداً، مثل نظرية التحديث Modernztion، ونظرية نهاية التاريخ، ونظرية صراع الحضارات، ونظرية سيادة الليبرالية... إلخ.

هذه الأفكار والنظريات المزيفة والمصنوعة بيد باحثين وبتوجيه من المؤسسات السياسية والاستخبارية الغربية لم تتوقف. فقد عرض حديثًا بول كندى أستاذ التاريخ فى جامعة «يال» الأمريكية وصاحب كتاب (ارتفاع وانهيار القوى العظمى) المترجم إلى العربية، عرض فى جريدة نيويورك تايمز الصادرة يوم ٢٧

يناير ٢٠٠٢م دراسة د. برنارد لويس المتخصص فى الدراسات الإسلامية والشرق الأوسط وعنوانها (الخطأ الحادث فى العلاقة بين الإسلام والغرب) ويرى لويس أن إرهاب الحادى عشر من سبتمبر فى أمريكا ليس هو الذى أثار فكرة إعداد الدراسة لأنه بدأها قبل هذا التاريخ. وهو يرى أن إشكالية العلاقة بين الغرب والإسلام هو رفض الإسلام والمسلمين التعامل مع متغيرات العصر وأهمها العولمة الاقتصادية، والديمقراطية السياسية، والتعددية الأمريكية، وهى المتغيرات التى تقودها أمريكا. وفى نظره فإن الدول الإسلامية عاجزة ورافضة للتواصل مع الغرب ومع كل جوانب العقلانية والعلمية والتقنيات الحديثة. المسلمون فى نظره يعيشون فى أوهام أمجاد الماضى، وقد رفضوا التعامل مع كل جوانب التقدم الذى أفرزه العقل الغربى ابتداء من التنمية الاقتصادية والتصنيع والديمقراطية التى قادتها بريطانيا منذ ١٧٦٠م وتبعتها فرنسا ثم أمريكا. وإشكالية المسلمين فى نظر لويس رفض فصل الدين عن الدولة، وعدم القدرة على التواصل مع حضارات وأفكار الآخرة، وبالتالى معاداتها وعدم الاستفادة منه. والمسلمون فى نظره عاجزون عن فهم كيف يبدع الآخرون، وعن الاستفادة من هذه الإبداعات.

وإذا كان لويس يشير إلى أن هناك محاولات متفرقة لدى بعض العرب والأتراك والإيرانيين للتواصل والاستفادة من إبداع الحضارة الغربية، فإنه يرى أن هذه المحاولات لا تمثل التيار السائد لدى المجتمعات المسلمة.

والمشكلة أن أنصار الاتجاهات الأصولية المتطرفة يرجعون تخلف المجتمعات الإسلامية إلى الابتعاد عن صحيح الدين، وليس إلى العجز عن التواصل والاستفادة من منجزات الحضارة الغربية متمثلة فى العقلانية والثورة العلمية والمعرفية والديمقراطية.

ويرى لويس أن حل الإشكالية والقضاء على تخلف المسلمين لا يتحقق إلا بالتخلى عن كراهية المسلمين للحضارة الغربية والاندماج فى النظام العالمى

الجديد. هذه الرؤية القديمة المتجددة فى الغرب أن الإسلام هو العدو الأساس للتقدم والحضارة الغربية هو ما تردده قيادات فكرية (فريدمان وهنتجتون..) وقيادات سياسية (مارجريت تاتشر) فى مقال لها فى الهيرالدتريبون البريطانية (١٢ فبراير ٢٠٠١م).

ثانياً: عناصر المنهجية العلمية للرد على الاتهامات:

والسؤال الملح الآن هو كيف نغير هذه الصورة المشوهة عن الإسلام؟ وكيف نقنع رجل الشارع فى الغرب؟ كما نقنع صانع القرار بأن الإسلام هو دين السلام والتقدم والتنمية والانفتاح على كل الحضارات، وهو دين يؤكد أن الاختلاف والتعددية والتنوع العقائدى والثقافى والفكرى والسياسى واللغوى والحضارى.. هو سُنة من سُنن الله يجب احترامها والتعامل معها بما يؤدى إلى صالح الإنسان فى كل مكان وزمان. كيف نوصل لهم ونقنعهم أن الإسلام يحرم الاعتداء ويجرم الإرهاب وترويع الآمنين سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين؟ كيف نوصل لهم أن الإسلام يجرم الإكراه حتى ولو كان فى أمور العقيدة، لأنه يحترم حرية الإنسان أو قل هو دين التحرير ـ تحرير الإنسان مسلمًا كان أم غير مسلم. وهنا لا بد من طرح مجموعة أساليب أو آليات تنبثق عن سياسات مدروسة، بشكل علمى أهمها:

الأولى: الوصول إلى رجل الشارع الغربى من خلال الإعلام والاتصال وترجمة حقائق الإسلام الصحيح وطرحها من خلال الإعلام بالاستعانة بالمسلمين فى الدول الغربية، والاستعانة بالمنصفين من الدارسين الغربيين. وهنا يجب الاستعانة بخبراء الاتصال والتواصل مع العقل الغربى للتأثير على كل آليات تشكيل القرار ولا نقتصر فقط على مصادر صنع القرار. وهذا يعنى محاولة الوصول إلى أبناء الخمسين ولاية فى أمريكا إلى كل أبناء مجتمعات أوروبا وهم الذين يشكلون القرارات من خلال صناديق الانتخابات، ومن خلال آليات متعددة كجماعات الضغط والكتابة الصحفية والأحزاب المعارضة

وجماعات المصالح والهيئات غير الحكومية ومختلف مؤسسات المجتمع المدنى... إلخ.

الثانية: التواصل مع نظريات منصفة أقرت بفشل البناء الثقافى الغربى وإبرازها، خاصة تلك التى أكدت إفلاس الحضارة الغربية من الغربيين أنفسهم ـ مثل نظرية تدهور الغرب «اشبنجلر» ونظرية دورة الثقافات «سوروكين» ونظرية دورة الحضارة «توينبى»، وأيضًا التواصل مع علماء وباحثين معاصرين ومؤثرين يشعرون ويؤمنون بإفلاس الحضارة الغربية بعد أن أوغلت فى المادية والفردية والمصلحية والأنانية، وبعد أن ابتعدت عن الجوانب الروحية وعن القيم الإنسانية، وابتعدت عن الصلة بالله. هؤلاء العلماء والباحثون الموضوعيون الذين يعبرون عن بؤس الإنسان الغربى حتى فى ظل الوفرة المادية، وعن جدب الحضارة الغربية وانفجارها من الداخل بسبب ابتعادها عن قيم الحق والخير والتعاون، وابتعادها عن تحرير الإنسان الذى لا يتم بحضارة آلية أو حضارة آلات، وإنما بحضارة قيم، وبحضارة يؤخذ فيها البعد الإلهى والبعد الروحى فى الاعتبار، وإلا انقلب الإنسان إلى حيوان أو وحش كاسر، وإن كان فى هذا ظلم للحيوان.

والأمثلة على هؤلاء العلماء والباحثين الموضوعيين الذين يدركون أنه لا سبيل لإنقاذ حضارة الغرب إلا باستعادة وتطبيق قيم الإسلام المفكر الفرنسى «جارودى»، وقد كان هذا أحد أسباب إشهار إسلامه، وهناك «روبرت كرين» مستشار الرئيس الأمريكى السابق نيكسون. وقد كان نيكسون يعتمد على مستشاره فى قراراته وفكره. وقد أخرج نيكسون دراسة بعنوان «اغتنم الفرصة»، خصص فيها فصلاً عالج فيه تخلف المسلمين وكان فى هذا الفصل متحيزًا بشكل واضح ضد الإسلام والمسلمين وعندما راجعه مستشاره وآخرون فى آرائه، جمع عدداً كبيراً جداً من الدراسات حول الإسلام والمسلمين ودفع بها إلى مستشاره «روبرت كرين» الذى عكف على فحصها ودراستها بعناية،

توصل بعدها إلى عظمة الدين الإسلامى، وأنه هو الحل للمشكلات المزمنة داخل المجتمع الغربى. وقد انتهى «كرين» بعد هذه الدراسة إلى اعتناق الإسلام. ليس هذا فحسب، بل أقنع الرئيس نيكسون بعد خروجه من البيت الأبيض وتفرغه للكتابة سواء فى مجلات أو إصدار كتب، أقنعه بخطأ أفكاره عن الإسلام والمسلمين. وقد تمخض هذا عن قيام نيكسون بتأليف كتاب بعنوان «ما وراء السلام»، أوضح فيه أن حضارة الغرب سائرة فى طريق الانهيار لإسرافها فى المادية والمصلحية والأنانية، وأنها حضارة مفلسة إنسانيًا على عكس حضارة الإسلام التى ترتكز على مكارم الأخلاق والقيم العليا، والتى تكرم الإنسان وترقى بالسلوك. وقد دلل نيكسون على إفلاس حضارة الغرب أو الحضارة الأمريكية بانتشار كل أنواع الفساد الذى يكلف الدولة الأمريكية ميزانيات ضخمة. فالدولة تنفق حوالى (١٤) مليار دولار لمواجهة ومكافحة الجريمة وعقاب المجرمين، وتنفق (١٠) مليارات دولار على مكافحة المخدرات. والمجتمع الأمريكى يعانى من التفكك الأسرى بمعدلات عالية، ملايين الأطفال بلا آباء، وآلاف من المعاشرات الجنسية وسكنى الشباب مع الشابات دون زواجCohabitation ، وعزوف آلاف وملايين الشبان عن الزواج، وانتشار البطالة، والصراعات بكل أشكالها (العنف)... كل هذا بسبب غياب حضارة القيم التى ترتكز عليها الأديان وفى مقدمتها الإسلام.

هناك المئات من الباحثين الغربيين الموضوعيين الذين يعترفون بتفوق الحضارة التى يقيمها الإسلام، منهم من اعتنق الإسلام، ومنهم من لم يعتنق الإسلام. فهناك مثلاً الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا الذى يرعى مركزًا من أهم وأبرز مراكز البحث فى الغرب عمومًا وفى بريطانيا خصوصًا وهو «مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية» التابع لجامعة أكسفورد، والأمير تشارلز يدرك جيدًا حقائق جيدة حول الحضارة الإسلامية فى وسطيتها واعتدالها وسماحتها ودعمها للمنهج العلمى والتفوق العلمى والانفتاح الثقافى وعطاءاتها لكل

فروع العلم والمعرفة والتقدم الإنسانى. ومدير هذا المركز وهو الدكتور نظامى على قناعة تامة بعطاءات الحضارة الإسلامية وبضرورة التعاون بين المركز وبين المشتغلين بالعلوم الشرعية والإعلاميين ومسئولى الثقافة والاتصال والفكر فى العالم الإسلامى، للتعاون من أجل تصحيح صورة الإسلام فى الفكر وفى مناهج التعليم وفى الإعلام الغربى.

وإلى جانب هذا المركز هناك العديد من المراكز العلمية المنصفة التى تحتاج إلى التعاون معها من أجل تصحيح صورة الإسلام فى الغرب، مثل مركز التفاهم المسيحى الإسلامى بجامعة جورج تاون. ويدير هذا المركز «جون إسبوزتيو» وهو باحث متعمق على وعى بكل إيجابيات الدين والحضارة الإسلامية. ويجب أيضًا التعاون بين المسئولين فى عالمنا العربى والإسلامى وبين هذه المراكز التى على رأسها قيادات موضوعية منصفة للإسلام. ويجب التعاون كذلك بين مؤسساتنا فى العالم الإسلامى وبين هذه المراكز فى نشر ما تسفر عنه هذه المراكز من نتائج وعرضها بعد تبسيطها فى أجهزة الإعلام الغربى.

الثالثة: تشجيع المسلمين فى الغرب، سواء من كانت لهم أصول عربية أو غربية بأن يقتدوا باللوبى اليهودى أو الصهيونى وما يستخدمونه من آليات سياسية واجتماعية واقتصادية حتى يلعبوا دورًا مهمًا فى التأثير على الرأى العام الأمريكى وصناع السياسات والقرارات. يضاف إلى هذا يجب على الدول الإسلامية دعم الأقليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا وربطهم بالعالم الإسلامى، وتنسيق السياسات معهم وإمدادهم بالمعلومات والبيانات، لأنهم الأقدر على مخاطبة مجتمعاتهم لتملكهم لكل آليات التواصل مع أبناء هذه المجتمعات وفهم طبيعة العقلية والشخصية المستهدفة من الخطاب الإعلامى والثقافى.

الرابعة: تفعيل الأجهزة الإسلامية والعربية مثل أجهزة جامعة الدول العربية، ورابطة العالم الإسلامى، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، والندوة العالمية

لشباب العالم الإسلامى، ورابطة الجامعات الإسلامية، كل هذا من أجل التنسيق بينها ورسم سياسات للإعلام والنشر باللغات الأجنبية وتصميم برامج للصحافة والتلفزيونات الغربية قادرة على نشر حقائق الإسلام فى سماحته واعتداله، وعن المسلمين وما يعانونه من أزمات بسبب الهيمنة الغربية والإسرائيلية، وما يمارس ضدهم من ظلم واستعباد لا يتفق مع كل القيم الدينية الصحيحة الإسلامية والمسيحية واليهودية، كما لا يتفق مع أبسط المبادئ الإنسانية.

الخامسة: تفعيل مختلف المؤسسات الحكومية وغير الحكومية فى العالمين العربى والإسلامى فى مجال التواصل مع المؤسسات الغربية المقابلة ودعوة القيادات الإعلامية والاتصالية، والقيادات الثقافية من الكتاب والمفكرين الغربيين وأصحاب دور النشر الكبرى... إلخ، للحضور إلى دولنا العربية والإسلامية ليروا بأنفسهم التعايش السلمى بين المسلمين وغير المسلمين فى وحدة وطنية رائعة، ويلمسوا بأنفسهم سماحة الإسلام وحقائقه التى تدين وترفض وتحارب وتجرم كل صور التطرف والإرهاب والعنف بكل أشكاله، وحتى يدركوا حقائق الصراع العربى الإسرائيلى، وحقيقة التجنى الصهيونى والجرائم التى ترتكبها إسرائيل ضد الفلسطينيين تحت دعاوى زائفة حول مكافحة الإرهاب والعنف الفلسطينى والعنف المتبادل...!!

السادسة: إن التخطيط العلمى لتغيير صورة الغرب المشوهة عن الإسلام والمسلمين تتطلب حسن توظيف شبكات الاتصال الحديثة فى عرض حقائق الإسلام فى يسره وسماحته، وفى مقدمتها شبكة الإنترنت بشرط التنسيق بين كل المواقع العربية والإسلامية. وحسب دراسة للمجالس القومية المتخصصة فى مصر فإن عدد المواقع لعشرة دول عربية تصل إلى ٢٧٩٧ موقعًا فى حين أن لإسرائيل وحدها ٢٩٥٠٣ موقعًا. وعدد مواقع الثقافة الإسلامية ٢٢٨ موقعًا، بينما عدد المواقع الثقافية اليهودية ٧٠٢ موقعًا. والمشكلة أن هذه المواقع

الإسلامية لا تسهم فى الإجابة عن التساؤلات والاتهامات والمغالطات التى يطرحها الغربيون عمداً لتشويه صورة الإسلام والمسلمين وعلى الرغم من وجود بعض المواقع المهمة والمتقدمة مثل موقع «الإسلام والعقائد» الذى تشرف عليه إحدى شركات البترول، ومواقع لوزارة التربية والتعليم فى مصر، ولجمعية الرعاية المتكاملة... إلا أن الأمر يتطلب أن يمارس الأمر بشكل حرفى ومهنى متقدم من خلال خبراء، ومن خلال سياسات وخطط مدروسة وهادفة، والمتابعة المستمرة لما يتم فى مختلف أنحاء العالم بشأن الإسلام والمسلمين.

السابعة: التوسع فى إرسال القنوات الفضائية والموجهة مثل القناة المصرية الموجهة للولايات المتحدة، وقناة النيل التى تبث بالعبرية لمخاطبة الرأى العام فى إسرائيل، على أن تحذو الدول الإسلامية حذو مصر بشرط أن يتم التنسيق بين هذه القنوات، وأن تختار المواد التى تبث فيها بشكل علمى وشرعى سليم مستنداً إلى فهم لما يحدث فى العالم، ولطبيعة ونمط التفكير ونمط الشخصية واهتمامات الجمهور المستهدف بالرسالة وبشكل مبسط ومختصر وجذاب.

الثامنة: ألا نظل نكلم أنفسنا حيث إن هناك شعوراً بغيبة الخطاب العربى على الساحة الدولية، وافتقاره إلى مقومات العصرية والوضوح والقدرة على إقناع الآخر والتأثير فى الغير. لقد عقدنا عشرات الندوات على مستوى الجامعات وجامعة الدول العربية والمؤسسات الثقافية حول الإسلام والغرب، وحول حوار الحضارات، وحول صراع الحضارات.. وخلصت هذه الندوات والمؤتمرات إلى توصيات بعضها مهم. لكن المشكلة أننا نخاطب أنفسنا، وتظل أغلب هذه التوصيات حبيسة الأدراج، فى حين أن المطلوب تفعيل هذه التوصيات وتنشيط حركة الترجمة والنشر ونقل ما يدور فى هذه الندوات إلى رجل الشارع وإلى المثقف الغربى وإلى صانع القرار هناك بشكل مؤثر مقنع قادر على إزالة التشوهات الفكرية عندهم بشأن الإسلام والمسلمين.

التاسعة: تحديث الخطاب الإسلامى من حيث الشكل والآليات وأساليب

التأثير. فمع الاحتفاظ بجوهر الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا يجب التركيز على الجوانب التى تجعلنا نتواصل مع الآخرين، وعلى دعم الإسلام للمنهج العلمى، وأن هذا المنهج التجريبى هو إفراز العقل المسلم، وأن الإسلام يجعل التنمية وتحقيق التقدم وبناء المجتمع القوى علميًا وتكنولوجيًا والذى يأخذ بأحدث أساليب العلم، والقادر على الإبداع والإسهام فى التقدم العالمى، يجعل كل هذا واجبًا دينيًا على المسلمين. يجب أن يركز الخطاب الدينى على موقف الدين من متغيرات العصر ومن التعددية والحوار والشورى والديمقراطية، وهى أمور فى جوهر الفكر الإسلامى. كذلك يجب إبراز تجريم الإسلام للعنف..

العاشرة: إن المواجهة العلمية والمتكاملة لصورة الإسلام والمسلمين فى الغرب تتطلب مجموعة من الآليات السياسية والمجتمعية، تنبثق من سياسة إعلامية وثقافية وفكرية موحدة، تتكامل خلالها كل المؤسسات الحكومية وغير الحكومية العاملة فى المجال الثقافى والتربوى والإعلامى فى عالمنا العربى. ويجب أن يوظف فى بناء وتنفيذ هذه الخطة كل الإمكانات البشرية والمادية للدول الإسلامية مجتمعة حتى تكون قادرة على رد الحملة الشرسة التى تقودها الصهيونية والتى تخصص لها ملايين الدولارات وصفوة خبراء الإعلام فى العالم.

تساؤلات رئيسية ينبغى بحثها فى علاقتنا بالآخر (رؤية نقدية):

إن تغيير صورة الإسلام فى العالم يقتضى منطقيًا أن نغير صورة المسلمين. ولن تغير صورة المسلمين إلا بتغيير واقعهم الذى يتسم بالتخلف فى الكثير من المجالات. وهذا يقتضى ببساطة شديدة أن نطبق تعاليم الإسلام الصحيح بقيمه ونظمه وسلوكياته فى الواقع الاجتماعى المعاش للشعوب. وهذا يقتضى تطبيق ما نحاول نشره وإفهامه للآخرين بصدد جوهر الإسلام. هذا الجوهر الذى يعلى من قيمة العقلانية وقيمة الإنسان وحقوقه، وقيم العلم والتخطيط واحترام الوقت والأخذ بالنظرة المستقبلية وبناء كل مقومات القوة الشاملة ابتداء من القوة الثقافية والعلمية والفكرية، حتى القوة الاقتصادية والعسكرية، مروراً

بالقوة السياسية متمثلة فى حرية الرأى والرأى الآخر، واحترام المعارضة فى إطار الضوابط القيمية، واحترام الشورى والديمقراطية، وتطبيق أدب الحوار والاختلاف داخل مجتمعاتنا الإسلامية.

وهناك مجموعة من التساؤلات المهمة التى يجب طرحها فى هذا الصدد:

أولاً: لا جدال فى أن قيم الإسلام تدعو إلى كل أسباب التقدم الإنسانى والاقتصادى والعلمى والسياسى فى إطار قيم العدالة والمساواة والشورى.. لكن هل نحن فى مجتمعاتنا الإسلامية نطبق قيم التقدم والتفوق التى يدعو إليها ديننا الحنيف؟

ثانيًا: الغرب عندما يخاطبنا لا يقدم نفسه استنادًا إلى قيم الليبرالية والحرية والإخاء والمساواة وتحرير الإنسان، وإنما يقدم نفسه إلينا قبل ذلك بمنجزات داخل مجتمعات الغرب، يقدم نفسه بمنجزاته التكنولوجية وتقدمه التعليمى والفكرى فهل لدينا ما نقدمه للغرب من نماذج للتقدم ـ نماذج واقعية وليست مجرد نماذج تستند إلى النصوص الدينية؟

ثالثًا: هل من المناسب أن نحدث الغرب عن ديننا من خلال النصوص، وهو الذى يعتبر أن فصل الدين عن الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى أكبر إنجازاته الحضارية، وأنه هو سر تقدمه؟ حقيقة الفارق ضخم ودال بين ما كان يسود أوروبا خلال القرون الوسطى من دين ونظريات دينية زيفت المسيحية الأصلية التى تتفق فى جوهر عقيدتها وقيمها وأخلاقها بوصفها دين سماوى منزل مع الإسلام عقيدة وأخلاقًا، الفارق كبير بين القيم الدينية لديانات أوروبا خلال القرون الوسطى وحتى عصر النهضة وبين قيم الإسلام. فالأولى مصادمة العقلانية والعلم والمنهجية الموضوعية فى البحث، ومصادمة لتحرير الإنسان وللعدالة والحرية واحترام الآخر ولكل قيم التقدم. أما قيم الإسلام فإنها تنظر إلى العقلانية والمنهجية والبحث العلمى والأخذ بكل سبل القوة بكل أشكالها واحترام حقوق الإنسان، والإيمان بكل الرسل والكتب والرسالات السابقة على

الإسلام بوصفها جزء لا يتجزأ من الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا. الإشكالية هنا هى أنهم لا يهتمون بأمور العقيدة ولا أمور الدين. ولا الفلسفات أو الأيديولوچيات، وإنما يهتمون بالدرجة الأولى بالواقع والتفوق المادى فى كل المجالات. والسؤال هنا كيف نخاطبهم بما يرفضونه ولا يمثل لديهم مجالاً للاهتمام أصلاً وهو الدين خاصة وإننا لا نطبق قيم ديننا التى تدعو إلى «العقلانية والمنهجية والعلم والتخطيط والتقدم والقوة الشاملة، وهنا يجب الإشارة إلى خطورة التفسير الأحادى للسلوك الإنسانى أو سلوكيات الشعوب. فإذا كان الدين مكونًا أساسيًا من مكونات الثقافة والقيم الموجهة للسلوك لدى الشعوب، فإنه ليس المكون الوحيد. فقد تجاوزت العلوم الاجتماعية النظريات الحتمية التى تبرز عاملاً واحدًا على أنه المفسر الوحيد للسلوك. الإسلام بحق دين سماوى دافع للعقلانية والتوازن والتقدم، لكنه ليس هو العامل الوحيد المسير لحياة الناس فى الدول الإسلامية، فهناك العوامل البيئية والاقتصادية والتاريخية والدولية والاختلاط بثقافات أخرى. وهذا يعنى خطأ إرجاع تخلف بعض المجتمعات الإسلامية إلى الإسلام. فهناك فرق بين الإسلام وبين الفهم البشرى للإسلام، وبين الإسلام والترجمة الصحيحة له سلوكيًا.

رابعًا: صناع السياسة فى الغرب وظفوا مجموعة من الباحثين الذين أخرجوا لنا نظريات مثل التحديث، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وانتصار الليبرالية.... إلخ. وليس من الغريب أن مطلقى هذه النظريات وهم «رستو» و «فوكوياما» و «هنتجتون» و «توماس فريدمان»، أطلقوا هذه النظريات بعد تكليفهم من الأجهزة الرسمية فى أمريكا مثل الخارجية والمخابرات المركزية الأمريكية.. وقد كانوا جنودًا فى هذه الأجهزة. وهذا يعنى أن الأجهزة الرسمية لصناعة القرار فى الغرب قد حددت علاقتها بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية على أنها علاقة صراع. وهذا يعنى أنهم حددوا بشكل مسبق ومن طرف واحد شكل العلاقة واتجاه الحركة وأهدافها. ولم يكتف

الغرب «الولايات المتحدة» بهذا التحديد وإنما تحركت فى مجال التطبيق بشكل عسكرى يستند إلى التفوق المطلق اقتصاديًا وعسكريًا بضرب مجتمعات إسلامية واتخاذ قرارات بضرب مجتمعات إسلامية أخرى بوصفها مصدر الشرور دون تفاهم مع أحد ودون التفات للمؤسسات الدولية أو القانون الدولى وحتى دون حاجة للإدلاء بالمبررات القانونية للاعتداء على هذه المجتمعات والشعوب المسلحة.

وفى ظل هذا الوضع غير العقلانى وغير المنطقى هل يجدى ما نطرحه من منهجيات وتصورات حول حوار الحضارة أو الحوار بين الإسلام والغرب؟

هنا يكون توقيت الحوار غير مناسب وفى غير صالح المسلمين. ففى ظل الانقسام إلى جانب متفوق ماديًا، وجانب متخلف والفروق ضخمة بين الجانبين يصعب الحوار. وفى ظل ظروف المجتمعات المسلحة التى يسودها التخلف والضعف والتمزق والحاجة إلى خبرة الغرب وتكنولوچيته وأمواله ومعونته.. يصعب إقامة حوار صحى متكافئ، وفى حالة التشتت والتفرق والتشرذم تصعب المواجهة.

خامسًا: هل نحن ندافع عن الإسلام أم عن المسلمين؟ الإسلام واضح حتى لدى الدارسين له من أعدائه فى الغرب. وقيم الإسلام الداعية للتقدم استنادًا على الخطاب الإلهى للناس كافة متمثلة فى القرآن والسُنّة أمر يعرفه كل دارس للإسلام. فالمشكلة ليست فى النص القرآنى وإنما الإشكالية فى ابتعادنا نحن المسلمين عن الأخذ بمقتضيات هذا الخطاب. فهل نكتفى بمحاولة تقديم صحيح الدين الإسلامى للآخر، أم نقدم له تطبيقاتنا لقيم هذا الدين وترجمته سلوكيًا فى حياة المسلمين؟

سادسًا: هل نتوجه بالخطاب الإسلامى الموضح لحقائق ديننا الحنيف إلى مؤسسات صنع القرار فى الغرب أم إلى الإنسان الغربى؟ مؤسسات صنع القرار منحازة ضد الإسلام ليس بسبب أن الإسلام يدعو للإرهاب والتخلف

والتعصب والتطرف كما يشاع خطأ فى الغرب، وإنما ببساطة لأن المشروع الحضارى الإسلامى (الذى لم يجد سبيله للتطبيق فى الواقع المعاصر للمجتمعات الإسلامية) يتصادم مع مصالح الاحتكارات والمؤسسات الاقتصادية والعسكرية والسياسية فى الغرب. ولعل هذا ما جعل هذه المؤسسات ومن ورائها القوة الصهيونية المسيطرة تحاول غرس صورة مشوهة عن الإسلام لدى تلاميذ المدارس والجامعات فى الغرب من خلال المناهج الدراسية. الإنسان الغربى ليس فى خصومه مع الإسلام أو المسلمين، وإنما خصومتنا مع صناع القرار لتصادم المصالح، ومع المسئولين عن صياغة المناهج عندهم. إن أفكارًا مثل نهاية التاريخ وصراع الحضارات... هى فى النهاية شكل من أشكال التطرف الغربى، تماثل التطرف أو الغلو فى الدين عند المسلمين أو المسيحيين أو البوذيين. هذه الأفكار لا تمثل رأى رجل الشارع الغربى فالتيار الأساسى Main stream فى الغرب معتدل ومتوازن فى علاقته بالإسلام. فهل نحن نتوجه بالخطاب إلى رجل الشارع أم إلى المسئولين فى الغرب أو الشرق؟ رجل الشارع عندهم لا يقل أهمية عن صناع القرارات، لأنهم فى النهاية هم المسئولين عن تنصيب صناع القرار من خلال صناديق الانتخاب لهذا يجب أن نتوجه بجزء كبير من خطابنا إلى رجل الشارع الغربى باللغة التى يفهمها وبمنطقه الذى يحركه.

سابعًا: هل ننشغل بالغرب ونوجه كل طاقاتنا وإمكاناتنا للحوار مع الغرب من أجل رد الهجمة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين التى يقودها الغرب الآن، وننسى قوى أخرى مرشحة للتفوق والقطبية فى المستقبل القريب مثل الصين وكوريا واليابان والنمور الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية؟ يجب ألا يشغلنا رد الفعل عن التفكير الإستراتيجى الأكثر اتساعًا. فالعالم الآن ليس قاصرًا على الغرب، فهناك قوى أخرى يجب أن نتجه بخطابنا إليها تحقيقًا لعالمية الإسلام من جهة ولمصالح مجتمعاتنا المسلمة من جهة أخرى خاصة وأن هناك قوى

اقتصادية عملاقة كاليابان وقوى صاعدة بقوة كالصين.

ثامنًا: يشير أ.د. أحمد كمال أبو المجد أنه حضر خلال يناير ٢٠٠٢م ثلاثة منتديات فكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية لتفسير ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر، وآثاره المتعددة على العلاقة بين الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة، وبين العرب والمسلمين، ومحاولة التعرف على كيفية تفكير العرب والمسلمين، وكيف يتصرفون. وكما يشير بحق (هاليداى) فى كتابه المهم بعنوان: «ساعتان هزتا العالم: ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الأسباب والنتائج» فإن ما يجب أن نركز عليه عند التحليل العلمى للسلوك والتصرفات وثقافات الشعوب ومواقفها واتجاهاتها هو التعرف على ما يفعله الناس ورصد سلوكياتهم الواقعية، وعدم الاقتصار على تحليل النصوص الدينية أو الأيديولوچية سواء كانت ماركسية أو لينينية أو إسلامية. وهذا يعنى عدم الاقتصار على تحليل الخطاب الإسلامى والماركسى أو الليبرالى أو غيره، وإنما يجب تحليل الفعل والسلوك الذى يتحقق فى أرض الواقع. ويضرب مثالاً لهذا بحالتين وهما: الثورة الإيرانية (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩) وتأثير الغزو العراقى للكويت. ويشيد (هاليداى) بدراسة أنثروبولوچية قام بها (مايكل جليسنان) سنة ١٩٨٢م حاول من خلالها التعرف على الإسلام من خلال دراسة السلوك الفعلى للمسلمين وعدم الاقتصار على النصوص الدينية أو القانونية. فالاقتصاد الماليزى أو السعودى حسب رأيه لا يمكن فهمه من خلال الرجوع للاقتصاد الإسلامى أو التوحيدى، وإنما يجب الرجوع إلى الممارسات الواقعية التى تثبت حسب قوله أن هذا الاقتصاد الإسلامى أو التوحيدى، أن هذا الاقتصاد تسيره آليات الاقتصاد الليبرالى العالمى.

وهذه المنتديات الثلاثة التى تحدث عنها أ.د. أبو المجد هى:

(١) ندوة بعنوان : «الإسلام وأمريكا فى عصر العولمة» ـ

«Islam and America in a Global World» أقامتها مؤسسة أنشأها بل كلنتون وهى مؤسسة= وليام جيفرسون كلنتون الرئاسية بالتعاون مع جامعة نيويورك وجامعة جورج تاون.

(٢) دعوة سفير مصر فى واشنطن لإجراء حوارات حول الدين والثقافة والسياسة بالتعاون مع جامعة جورج تاون.

(٣) دعوة من المنتدى الاقتصادى العالمى «دافوس» - «World Economic Forum» الذى عقد فى نيويورك.

وقد لوحظ أن الأمريكيين يحاولون معرفة طبيعة الإسلام كدين وحضارة وأسلوب حياة، وعما إذا كانت طبيعة الإسلام تتضمن توجهًا عدوانيًا يؤدى حين يتصاعد إلى ممارسة صور متعددة من العنف والإرهاب؟ وحملت ندوة نظمها مركز كلينتون فى نيويورك عنوانًا دالاً وهو «هل هناك جهاد إسلامى ضد أمريكا؟». وقد ناقش الحاضرون أمورًا ثلاثة يرون أنها مسئولة إلى حد كبير عما أطلق عليه بعض الكتاب ورجال الإعلام ظاهرة الإرهاب الإسلامى. وهذه الأمور هى:

أ - غياب المشاركة السياسية الحقيقية داخل الدول الإسلامية.

ب - الهوة الكبيرة بين الفقراء والأغنياء داخل هذه الدول.

جـ - انتشار ظاهرة التشدد الدينى الذى يحمل نبرة العداء للآخر على المستويين الداخلى والخارجى.

وقد وصل بعض كتاب الغرب إلى بعض النتائج الغريبة مثل أن الحملة التى قادتها الدول الإسلامية ضد الإرهاب، ليست فى حقيقتها إلا حملة ضد المعارضين السياسيين، وهذا ما جعل دول الغرب لم تتعاطف معها. وعلى الرغم من تحفظنا هذا التصور لكنه مطروح فى بعض دوائر الفكر الغربى. وبشكل عام فإن اللقاءات التى أشار إليها أبو المجد طرحت مجموعة من التساؤلات التى يحاول الغرب الإجابة عنها والتى يجب علينا ثقافيًا وإعلاميًا التركيز عليها، ومن أمثلتها:

أ ـ كيف يرى العالم الإسلامى أمريكا.

ب ـ علاقة الإسلام بالحداثة.

جـ ـ دور المرأة فى العالم الإسلامى (وضعها ـ حقوقها ـ مشكلاتها ـ برامج تنميتها).

د ـ العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى.

تاسعًا: بغض النظر عن الموقف من فكرة حوار الحضارات وحوار الأديان، وهل الحضارات تتحاور أو تتكامل وتتراكم، وهل الحوار يكون بين الحضارات أم بين الثقافات، وما هى مضامين حوار الأديان ما جدواها... إلخ. بغض النظر عن كل هذا فإنه يجب إبراز مجموعة من النقاط فى الحوار مع الآخر الغربى:

(١) عقيدة الإسلام لا تكتمل ولا تصح إلا بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب والرسالات السابقة.

(٢) الحضارة الإسلامية والغربية تنبثق من الديانات التى انتشرت من المنطقة العربية، وهى الديانات السماوية. فالمسيحية مصدرها أرض فلسطين حاليًا. وقيم الإسلام والمسيحية واحدة فى الإيمان بإله واحد وأن هناك يوم آخر للحساب، وهناك وحدة فى القيم وفى النظرة لقيمة الإنسان وحقوقه وضرورة احترامه.

(٣) الحضارة الإسلامية والغربية يؤكدان على أهمية مشاركة الشعب فى اختيار الحاكم وفى تداول السلطة وحرية الرأى والشورى والديمقراطية وأن إرادة الدولة إفراز شعبى وليس تنزيلاً إلهيًا.

(٤) لا بد من وجود اختلافات ثقافية، فالتنوع الثقافى الخلاق كما يؤكد اليونسكو فى تقريره بعد عقد التنمية الثقافية ٨٨ ـ ١٩٩٨ يدعم النمو والتفاعل والتعاون بين الشعوب، وأنه لا يمكن اختزال التنوع الثقافى العالمى فى ثقافة واحدة. فالهيمنة الثقافية أمر مستحيل فكرًا وتطبيقًا. وأن مبادئ الليبرالية الغربية ومبادئ القانون الدولى، ومبادئ المنطق البشرى تؤكد التنوع فى الهويات الوطنية والثقافية، كما تؤكد أن هذا التنوع هو مصدر التكامل والتعاون لصالح

الإنسان؛ وأنه سيستمر إلى أن يرث الله الأرض وما عليها لأنه سُنّة من سنن الله فى خلقه.

عاشراً: هل يمكن للحوار مع الغرب أن يكون فعالاً ومؤثراً فى ظل التشتت والتفكك والتشرذم الحادث بين المجتمعات الإسلامية؟ وفى ظل غياب المرجعية التى يجب الاحتكام إليها، وفى ظل اختلاف التوجهات السياسية والاقتصادية والعقائدية داخل المجتمعات الإسلامية؟ هل يمكن أن يكون للحوار جدواه وفعاليته فى ظل تعدد الجماعات الإسلامية وادعاء كل منها أنها تمتلك الحقيقة المطلقة تنطلق لتسفه آراء الغير؟ هل يمكن أن يكون للحوار فعالية فى ظل تحجيم حجم الحريات الشخصية خاصة حرية الرأى والبحث فى العديد من دول العالم الإسلامى؟ نحن فى حاجة إلى حوار عربى عربى، وحوار إسلامى إسلامى، ونحن فى حاجة إلى إعادة النظر فى مناهجنا فى التربية لدعم ثقافة الحوار والحرية المنضبطة بقيم الإسلام. نحن فى حاجة إلى التركيز على مدعمات الوحدة العربية والإسلامية والتخلص من كل مدعمات التمزيق والاختلاف والتفكك.

إن الخطاب الإسلامى الفكرى والخطاب السياسى له عدة مستويات، هناك خطاب التسامح، وهناك خطاب التوحيد والتجميع، وهناك خطاب القوة، وهناك خطاب الاستكبار والاستعلاء. والخطاب الإسلامى فى جوهره خطاب تسامح وتحرير وتجميع، وهو خطاب يتسم بالعقلانية والصدق والحوار. والخطاب الإسلامى شأنه شأن كل أنواع الخطابات يتأثر بطبيعة المرحلة التاريخية فالخطاب الإسلامى فى الفترة المكية غيره فى الفترة المدنية، والخطاب الإسلامى يدعو إلى منهج التدرج ومراعاة الواقع التاريخى والمعاصر والواقع الثقافى لجمهور المخاطبين. والخطاب الإسلامى يركز على الإخلاص فى الوصول إلى الحق، والبعد عن الهوى، والاستماع إلى الآخر، والبحث عن البراهين والحجج، واحترام التخصص، والتركيز على الظاهر وعدم الخوض فى النيات والسرائر.

الخطاب الإسلامى يتسم بالموضوعية. نحن فى حاجة إلى تحقيق نوع من التوازن بين الخطاب الداخلى بين المجتمعات الإسلامية والاتفاق على ثوابت الأمة فى ضوء المرجعية الشرعية السمحة دون إيغال فى المذهبيات وكل عوامل التمزيق والتفرق، والخطاب مع الآخر، الغرب والشرق وكل حضارات الدنيا، استناداً إلى ما يحمله الإسلام من منهجية علمية وعقلانية ودعوة إلى العلمية والتنمية وتحرير الإنسان وتكريمه والشورى والديمقراطية واحترام الآخر.

حادى عشر: فى مجتمعاتنا الإسلامية ما يدل على سيادة أقصى قيم التسامح والتعددية وحرية العقيدة على المستوى الواقعى، فهناك المسلمون وهناك المسيحيون فى وحدة وطنية رائعة، وفى تعاون مثمر بناء، وهناك الحفاظ على كل حقوق الإنسان وحرياته وفى مقدمتها حرية العقيدة. ولهذا يجب تعاون عنصرى الأمة فى إبراز هذه الحقيقة. أقول هذا لأن هناك اتجاهات متطرفة فى الغرب تطلق على نفسها (حركة الصهيونية المسيحية) على رأسها القس «بات روبرتسون» الذى يصف الإسلام بأنه دين الإرهاب وأنه يحض فى تعاليمه على ممارسة الإرهاب ضد الآخر، ومن بين أنصار هذه الحركة «جيمى سواغرت»، و «جيرى فلويل» و «جيم بيكر» و «كنث كوبلاند»... إلخ. ويقول أنصار الحركة أن عدد أنصارها فى أمريكا حوالى سبعين مليونًا. هذه الحركة تؤمن بأن العودة الثانية للمسيح مشروطة بقيام المجتمع والدولة الصهيونية، وبوجود الوسط اليهودى فى فلسطين. وهذا يعنى أن قيام ودعم إسرائيل أمر عقائدى لديهم ويذهب روبرتسون فى كل القداسات التى يقوم بها إلى أن كل ما تنعم فيه الولايات المتحدة من نعيم إنما يشير إلى رضاء الرب بسبب دعم إسرائيل، وأى تقصير فى هذا الدعم سوف يجلب غضب الرب. وإذا كان الإسلام والمسلمون هم القوة والدين الذى يحاول التصدى للوجود والتوسعات الصهيونية، فيجب محاربة الإسلام والمسلمين دون هوادة إرضاء للرب. وإذا

كان من شروط عودة السيد المسيح فى عقيدة الصهاينة المسيحيين بناء هيكل سليمان فإنه يجب هدم المسجد الأقصى حتى يتم بناء الهيكل على أنقاضه، كل هذا من أجل عودة المسيح الذى يرسى قواعد العدل والسلام على الأرض، ولن يكون ذلك إلا بالقضاء على أعداء المسيح وهم المسلمون!!

هذه المعتقدات التى لا تتفق مع المسيحية الأصلية ولا مع أى من الديانات السماوية، تتسم بقوة وتأثير كبيرين لأن أصحابها يمتلكون أكبر المؤسسات الإعلامية خاصة الصحافة والتليفزيون، وهم أصحاب قوة اقتصادية مؤثرة (شركات ومصانع ومستشفيات ومزارع) وبالتالى فإنهم يشكلون قوة ضغط كبيرة على صناعة القرار الأمريكى. وكما تشير «جريس هالسل» صاحبة كتاب (النبوءة والسياسة) وهى التى كانت تحرر الخطاب السياسى للرئيس الأمريكى السابق «لندون جونسون»، فإن مجلس الأمن القومى الأمريكى فى كل جلساته التى يناقش فيها موضوع الشرق الأوسط، يطلب من هذه الحركة الصهيونية المسيحية إرسال مندوب لها لمناقشة الأمور حتى تصدر القرارات متوافقة مع معتقداتها التوراتية.

ولعل هذا العداء المؤصل عقائديًا فى هذه الحركات المنحرفة والغريبة، ضد الإسلام يقتضى تبنى نهضة وبناء القوة العلمية والتقنية والاقتصادية، ويتطلب التواصل مع الميديا (الصحف والإذاعات والتلفزيونات) الغربية، وتكوين لوبى عربى أو إسلامى مؤثر فى صنع القرار العربى، وفى تصحيح صورة الأديان السماوية المنبثقة كلها من عقيدة التوحيد، وفى كشف زيف هذه الحركات المتصهينة وكشف ما وراءها من أهداف سياسية واقتصادية خبيثة مدمرة للإنسان ولكل القيم العليا التى نادت بها رسالات السماء إلى الأرض.

* * *